

الأستاذة: تلكماس المنصوري
عنوان الوحدة : نصوص درامية
عنوان المحور : نشأة المسرح
عنوان الجزء : المسرح اليوناني

من الأسطورة والطقس الديني إلى المسرح

إن الشكل الذي نعرفه عن المسرح هو الشكل الأوروبي المتطور عن الأصل اليوناني ولكنه ليس الوحيد في العالم، إذ توجد أشكال أخرى مختلفة عن هذا النموذج وعن هذا الشكل مثل المسرح الهندي والمسرح الياباني الذي يتوفر على ثلاثة أنواع النو والكابوكي وبونراكو للدمى وأيضا مسرح شرق آسيا ومسرح الفراعنة. فهناك إذن العديد من النماذج المسرحية التي كانت توجد في العالم لكنها لم تتطور لتصير مسرحا كما حصل مع اليونان. بل ظلت في شكل طقوس دينية استمر البعض منها إلى الآن في أشكال فرجوية أو شعائرية وطقوسية سنتحدث عنها لاحقا.

لنبدأ أولا بتعريف المسرح، ما هو المسرح؟

مصطلح المسرح في اللغة العربية مشتق من الفعل سرح يسرح سارحة، ومعناه المرعى كما ينصرف مصطلح المسرح إلى المكان والذي يضم الممثلين ويسرح فيه خيال الجمهور ومن هنا تشير كلمة المسرح أيضا إلى "بناية المسرح".

ويرجع الأصل اليوناني دلالة البناية، فالمسرح مترجم من الكلمة اليونانية théâtre وتياثرون تعني المكان الذي نشاهد فيه فرجة وهو المكان المرتفع من الأرض بحيث نشاهد فيه فرجة وعرضا.

تشير كلمة المسرح أيضا إلى "الفن" وإلى "المسرحية نصا وعرضا". ونجده اليوم في الدراسات النقدية بمسميات مختلفة، فمن هذه التسميات نجد: "فنون العرض"، و"الفنون المشهدية" و"فن المشهد" (Scénologie) ونجد أيضا "فنون الأداء" والدراماتورجيا.

وتفضل الأدبيات الألمانية مسمى: "فن أو فنون الفرجة" وأيضا "فنون العرض". ويشترط في المفهوم الأكاديمي للمسرح كفن مجموعة من العناصر لا يكتمل إلا بوجودها، وأهمها: العرض والجمهور والممثلون. فالعرض المسرحي بدون جمهور لا يمكن أن نقول عنه إنه عرض مسرحي، والجمهور بدون عرض مسرحي لا تتحقق فيه المشاهدة ومن هنا نفهم مصدر التسمية "فرجة" ففيها يتحقق الناظر والمنظور.

فالمسرح إذن هو فن يقوم على ثلاثة أركان رئيسة هي المرسل والمستقبل والرسالة.

المرسل هو الكاتب والممثل والمخرج ويكون المستقبل هو الجمهور

أما الرسالة فهي الخطاب المسرحي الذي يتضمن غايات ورسائل مختلفة ومتعددة (سياسية، اجتماعية، تربوية، أخلاقية.. الى آخره)، أما قناة التواصل فهي خشبة المسرح.

ويعتبر أرسطو أول المنظرين لفن المسرح خاصة في كتابه "فن الشعر" وأسماء كذلك لأن المسرح كان يكتب ويؤدي شعرا ولذلك نظر فيه وتأمل في خصائصه فاستنبط من تراجيديات سوفوكليس وإسخيلوس خصائص التراجيديا اليونانية وميزها عن الكوميديا.

أما مصطلح "دراما" فمقتبس من الفعل اليوناني "درا" (Dran) بمعنى "العمل" أو "الفعل". ولذلك فهو مفهوم شامل ينصرف على التراجيديا مثلما ينصرف على الكوميديا فكلها تتضمن أفعالا. فالدراما قائمة على الأفعال ولذلك كان مبتدأ تعريف أرسطو للتراجيديا في كتاب "فن الشعر" أن التراجيديا هي "محاكاة لفعل نبيل تام لها طول معلوم"، مما يعني أن الدراما هي محاكاة لأفعال إنسانية، وقسمها أرسطو إلى قسمين تراجيديا وكوميديا.

التراجيديا مأخوذة من اللفظة اليونانية تراجوس (Tragos) وتعني حريا، "جلد الماعز" وذلك نظرا لأن ممثلي التراجيديا كانوا يرتدون جلد الماعز أثناء ظهورهم على خشبة المسرح.

أما الكوميديا فمأخوذة من اللفظة اليونانية كوموس (Comos) بمعنى "أهل الريف" وأيضا بمعنى "الاحتفال الصاخب" لأن أهل الريف في اليونان يحرصون على التجمعات الاحتفالية بطرق مرحية مع حضور جوقة من المغنين والراقصين احتفاء بأعياد الإله ديونيزوس (إله الخمر والخصوبة والاحتفال) من خلال الأغاني الخفيفة المرحية.

ارتبطت نشأة المسرح إذن بالمنشأ الديني وبالطقوس الشعائرية. حيث اتفق معظم الباحثين والدارسين للمسرح على أن المسرح بشكله المعروف حالياً نشأ في الحضارة الإغريقية عند اليونان خلال ق الخامس قبل الميلاد وقد نشأت وتطورت التراجيديات واتخذت أصولها في الأغاني الدينية الديثرامبية التي كانت تغنى في الطقوس الدينية والاحتفالات التي تؤدي لعبادة الآلهة ديونيزوس أوباخوس. وتقسم الأعياد التي تتم فيها هذه الطقوس إلى ثلاثة أعياد: أعياد ديونيزوس الكبرى وأعياد المدينة وأعياد الريف. وهكذا تطورت التراجيديات. يرى أرسطو في كتابه "فن الشعر" أن أب التراجيديات هو "ثيسبيس" وذلك في القرن السادس قبل الميلاد، فهو الذي أوجد فكرة التمثيل. فبعد أن كانت الأحداث تُروى على لسان رئيس الجوقة أو الكورس أصبحت تُقدّم وتُمثّل على لسان شخصية أخرى غير رئيس الجوقة وكان يُسمّى "المُجيب" أو الشخص الذي يعبر عن آراء غير آرائه الشخصية أو الشخص الذي يظهر على غير حقيقته وهو المُمثّل الذي يجري على لسانه كلام كل الشخصيات التي يقوم بتمثيلها وكان يؤدي هذا الدور الشاعر نفسه الذي كان يكتب التراجيديات فيغير من ملابسه وقناعه.

وفيما بعد كانت تنصب خيمة إلى جانب الساحة بما يتفق مع الشخصية التي يراد تمثيلها بينما يستمر أفراد الجوقة في الرقص والغناء والإنشاد حتى يعود الشاعر إليهم ليناقش معهم ما قالته الشخصيات السابقة فإما أن يوافقها أو أن يعارضها أو أن يرثي لحالها وهكذا حتى تنتهي المسرحية.

لقد كان المسرح الإغريقي في بداياته عبارة عن رقصات دينية للإله ديونيزوس إله الخمر والنبذ، إذ كان العابدون يأتون إلى الإله ديونيزوس بالرقص والغناء أو ما يسمى بالديثرامب وهم ينشدون مجموعة من الأناشيد فرحين ويتغنون بأهازيج تذكر مولد الإله ديونيزوس وتذكر حياته وتمجد كل المواقف التي مرت عليهم في حياته.

فإنشاد هذه الأناشيد الدينية سبقت وتلتها أهم مرحلة والتي تشكل نقطة انطلاق المسرح الإغريقي عندما أدخل ثيسبيس فكرة الممثل الأول بقصد أن يجد المنشدون والجوقة من يجيبهم ويرد على أهازيجهم وهذا هو منطلق الدراما وهكذا خلق حواراً بين مكونين واستطاع أن يجمع الجمهور حولهما وتلك نقطة فارقة في تحول المسرح اليوناني من شكله الطقسي إلى شكله الدرامي المسرحي.

فثيسبيس إذن هو المؤسس الأول للتراجيديا عبر إدخال الممثل الأول والوحيد إلى جانب الجوقة إذ يبدأ الممثل الأول في الحوار مع الكورس وهم يردون عليه في شكل درامي فيحصل تفاعل بين الممثل الأول وبين الكورس على مرأى ومسمع من الجمهور. بعده سيأتي "أسخيلوس" وهو أول كاتب تراجيدي عرفه الأدب الإغريقي وهو الذي أدخل الممثل الثاني من أجل أن يجيب على الممثل الأول الذي أحدثه ثيسبيس، وهنا خلق جوا دراميا في الحدث التراجيدي أكثر تفاعلا بين الثالث (الممثل الأول)، والممثل الثاني (والجوقة)

كان دور الجوقة هو التدخل في الأحداث ويمكنه أن يوقف البطل التراجيدي إذا كان مقبلا على الخطأ وتعتبر مسرحية "الفرس" هي أولى مسرحيات أسخيلوس التي لم تؤخذ مادة موضوعها من الأساطير بل من التاريخ، ومنظرها قصر ملك الفرس، وفعلها الدرامي ليس سوى وصول رسول يحمل أخبار هزيمة الفرس، وتقديم صورة ملكها وهو منهزم منكسر، وهي أول مسرحية إغريقية يمكننا أن نلمس فيها سيطرة للكورس وتدخله الدرامي في الأحداث.

ثم جاء "سوفوكليس" كثاني أشهر كتاب التراجيديا اليونان وهو الذي أدخل فكرة الممثل الثالث، وبذلك فسخ المجال ليكون أكثر من ممثل موجود في التراجيديا. تعدد الممثلين معناه تعدد الأداء، وبالتالي سيتقلص دور الجوقة تدريجيا ليسمح بالتفاعل أكثر بين الممثلين الموجودين على خشبة المسرح.

وعندما جاء "يوربيديس" وهو ثالث كتاب التراجيديا الإغريقية وأعظمهم على الإطلاق والذي تبقى لنا من أعماله مسرحيات كثيرة أكثر من مسرحيات أسخيلوس وسوفوكليس، عمل نقلة نوعية في التراجيديا اليونانية وقلص دور الكورس ليصبح دوره خفيفا جدا مقتصرًا على مجرد فواصل بين الأغنيات أو بين الحوارات الموجودة بين الأبطال التراجيديين في المسرح.

وعموما يمكن أن نخلص إلى أن نشأة التراجيديا ارتبطت بجو ديني درامي، ناهيك عن جو المسابقات والجوائز التي كانت تقام لصالح التنافس على أجود التراجيديات وأفضل المؤلفين.

من الهام جدا قبل الختم ان نشير إلى أن هناك ارتباطا وثيقا بين الحياة العامة في الحضارة اليونانية (اجتماعيا وسياسيا ودينيا) وبين المسرحيات التي نقلها لنا روادها، ذلك أن تراجيديات سوفوكليس واسخيلوس ويوربيديس قد عبرت عن موقف أصحابها الرافض

للحروب التي سادت بين اليونان وخصومها من الفرس والرومان، مثلما وثقت للأوبئة التي حلت بالمجتمع اليوناني وصورت طبيعة التفكير الأسطوري والعبادات والمعتقدات السائدة وسجلت معارك وملاحم راسخة وثق لها هيرودوت المؤرخ الأشهر مثلما وثقتها مسرحيات التراجيدين اليونان.

"الكوميديا" أيضا لها نصيبها من تصوير مظاهر الحياة المحلية أو الاجتماعية لعامة الناس، وتطرح قضايا هامة بطريقة ساخرة شأن مسرحية "برلمان النساء" لأرسطوفانيس التي تهدف إلى انتقاد السلطة الأثينية في قالب هزلي ساخر يسند الحكم للنساء، ومسرحية "المال" حيث عرض مسألة التوزيع غير العادل للثروات عندما جعل بلوتوس إله الثروة أعمى، ومسرحية "الضفادع" التي تعيد قوانين مسابقات التراجيديا من أجل اقتراح ترتيبها الخاص وفقا لديموقراطية مختلفة يقترحها أرسطوفانيس. ثم إن نصيب الخيال والإبداع الفني حاضر دون شك مادام أرسطو قد اعتبر التراجيديا محاكاة لكن بدرجات مختلفة سنأتي على ذكر تفصيلها في المحور الخاص بالمحاكاة وفن الشعر عند أرسطو. طابت أوقاتكم